

الإيمان عند الأشاعرة وأثره في تحصيل السعادة الداخلية

د. بوبكر إيشو

باحث في العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية

أستاذ مادة التربية الإسلامية بالثانوي التأهيلي

المملكة المغربية

الملخص:

يتمحور المقال حول التلازم الوظيفي بين الجانب العقدي والشعوري، حيث يوضح أن الإيمان لغةً هو التصديق القلبي، وشرعاً هو التصديق بوجود الله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر. بينما تُعرّف السعادة نفسياً بـ "حسن الحال الذاتي"، وفي المنظور الإسلامي هي حالة طمأنينة وسكينة ناتجة عن الارتباط القوي بالله والرضا النابع من داخل القلب والروح دون الاعتماد على النعم المادية الزائلة. وفي المحور الأول، يقرر الباحث أن الإيمان في العقيدة الأشعرية هو تصديق قلبي جازم، مستشهداً بأقوال أئمة المذهب كالأشعري والباقلاني والغزالي، ومؤكداً أن الأعمال الصالحة والنطق بالشهادتين هما من ثمرات الإيمان ولوازمه وليس من حقيقته، مع جزمهم بأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وينتقل المحور الثاني لتحجيد السعادة الداخلية تاريخياً من خلال مواقف زهد ورضا السلف الصالح (كأبي بكر، وعمر، وبلال، وابن مسعود، والحسن البصري، وإبراهيم بن أدهم). ليعقب ذلك في المحور الثالث برصد سبعة أسباب لتحصيل السعادة القلبية وهي: التوحيد الخالص، ودوام الذكر، والرضا بالقدر، والإحسان للناس، والمحافظة على الصلاة، والاستغفار، والتفكير في النعم. وتخلص الخاتمة إلى أن العقيدة الأشعرية بأصولها الراسخة تمثل حجر الأساس لتأمين حياة هادئة مستقرة تسمو فوق متغيرات الدنيا وابتلاءاتها.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان على يوم الدين.

وبعد، إن موضوع الإيمان وأثره في تحصيل السعادة الداخلية من المواضيع التي تمس جوهر الإنسان وعمق وجوده، فهو يجمع بين الجانب العقدي الذي يشكل أساس التصور الكوني، والجانب الشعوري الذي يمنح القلب الطمأنينة والسكينة، ومن أجل الإحاطة بالموضوع وأسس ومضامينه، لابد أولاً من توضيح بعض المفاهيم الهامة.

أولاً: ماهية الإيمان؟

الإيمان هو مطلق التصديق، أي الإذعان للحكم وقبوله والاعتراف به، والدليل عليه قوله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف عليه السلام (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)¹، أي بمصدق لنا، وهو تصديق قلبي.

أما في السياق الشرعي فيعتبر الإيمان ركيزة أساسية، إذ يمثل الإيمان ثلث هذا الدين كما في حديث جبريل المشهور²، وينقسم إلى أقسام ستة، هي الإيمان بوجود الله الواحد الأحد وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، وهو أساس العقيدة.

¹ سورة يوسف، الآية 17.

² وهو الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومطلعه: (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم).

هذا الإيمان ليس مجرد اعتقاد، بل هو أيضا المحرك للسلوك الأخلاقي، حيث يدفع المؤمن لفعل الخير وتجنب الشر والالتزام بالعبادات، والحرص على إحسان المعاملة، وما أكثر قول النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصلح نفسه، ويحسن معاملة الناس، ويؤمِّن نفسه، فليكن من السعداء).¹

كما أن الإيمان هو قوة داخلية تمنح الإنسان الأمل والثقة واليقين، وصدق ربنا سبحانه لما قال: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)²، كما أنه هو المحفز للسلوك والعمل، وهو جزء أساسي فينا يساعدنا على فهم أنفسنا والعالم من حولنا، هذا عن الإيمان، فماذا عن السعادة.

ثانيا: ما هي السعادة؟

السعادة بمفهومها العام فهي حالة عاطفية ونفسية تتميز بمشاعر الفرح والرضا والقناعة، وتختلف من شخص لآخر ومن ثقافة لأخرى، كما أنها تتأثر بعوامل متعددة، مثل العلاقات الاجتماعية والصحة والظروف الاقتصادية.

ويعرفها بعض المتخصصين في علم النفس بأنها: "حُسن الحال الذاتي" والتي يمكن قياسها من خلال معادلة بسيطة، عدد المشاعر الإيجابية مطروحا منها عدد المشاعر السلبية، مضافا إليها مقدار الرضا عن الحياة.

و السعادة هي الخير الأسمى والغاية القصوى التي يسعى الإنسان لتحقيقها، وتتمثل في وصوله للكمال الذاتي، من خلال التفكير العقلاني، ونقل عن الفارابي وهو من أكابر فلاسفة الإسلام، أنه ربط السعادة بالوصول إلى أعلى درجات الكمال الإنساني، أما السعادة في الإسلام، هذا الدين الحنيف الذي غايته أن يسعد البشرية في الأولى والآخرة، فهي نتيجة الارتباط القوي بالله عز وجل، وهي حالة من الطمأنينة والسكينة، التي أشار إليها القرآن الكريم في كثير من الآيات، ومن ذلك ربطه بين الذكر والطمأنينة في قوله سبحانه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)³، ثم تساءل أخيرا عن ماهية السعادة الداخلية.

ثالثا: ما هي السعادة الداخلية؟

ويمكن توصيفها بأنها حالة من الرضا تنبع من داخل الإنسان، ولا تعتمد بشكل مباشر على الظروف الخارجية، مثل المال أو الشهرة أو الممتلكات المادية، وإنما لها ارتباط بالقلب والروح، وليس بالمظاهر الدنيوية المحضة، وذلك لعدة اعتبارات:

- 1- القلب هو محل الإيمان والطمأنينة: كما في حديث النبي ﷺ: (أَلَا وَإِنْ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)⁴، فصلاح القلب بالإيمان والذكر ينعكس تماما على حياة الإنسان المسلم كلها.
- 2- النعم التي ينالها الإنسان، وما يتمتع به في هذه الحياة، أمر لا يدوم، فالمال، والشهرة، والمظاهر الاجتماعية... كلها مؤقتة، بل قد تجلب القلق أكثر من الراحة، بينما الإيمان والرضا الداخلي يقيان ويدومان حتى في الشدائد.
- 3- الروح كالجسد تماما، كلاهما يبحث عن غذائه، وغذاء الروح هو القرب من الله، بالعبادة والتفكير والذكر، وليس بالمادة والشهوات، قال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)⁵.
- 4- المؤمن يسعد معنويا لا شكليا، والجانب المعنوي في حياة المؤمن هو القرب من الله، والعمل الصالح، وانتظار الأجر الأخروي، لذلك قد ترى فقيرا معوزا، إلا أنه يعيش راضيا مطمئنا، وفي المقابل ترى غنيا يملك الدنيا إلا أنه قلق مهموم.

¹ رواد البخاري ومسلم.

² سورة الأنعام، الآية 83.

³ سورة الرعد، الآية 29.

⁴ رواد البخاري ومسلم.

⁵ سورة طه، الآية 124.

5 - السعادة القلبية لا تتأثر بالظروف مهما كانت، لأنها مبنية على الرضا، واليقين بالله، وحسن الظن به، وهذا المعنى هو الذي نجده في وصف النبي ﷺ لحال المؤمن لما قال: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير... إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)¹، إن هذه المظاهر تعطي فرحاً عابراً فقط، بينما الروح والقلب يمنحان سكونية دائمة، وهذه هي السعادة الحقيقية التي يقصدها الإسلام.

هذا عن المفاهيم المؤطرة لهذه الكلمة، وننتقل الآن بشيء من التفصيل إلى محاورها الرئيسية.

المحور الأول: الإيمان بمفهومه الواسع من خلال نصوص العقيدة الأشعرية وكتبها ومصادرها.

يتلخص مفهوم الإيمان في المذهب الأشعري، بأنه هو التصديق القلبي بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تصديقاً جازماً، وهو بهذا التصديق يعد ركناً أساسياً من أركان العقيدة، فالتصديق يجب أن يكون يقينياً لا يخالطه شك أو تردد، فالنطق مثلاً بالشهادتين الذي هو الإقرار اللساني شرط لإجراء أحكام الإسلام في الدنيا مثل الصلاة وغيرها، ولكنه ليس جزءاً من حقيقة الإيمان في القلب، من أجل ذلك قد يكون الإنسان مؤمناً عند الله بقلبه وإن لم يتسن له النطق بالشهادتين، كالمحتضر مثلاً الذي لم يقو على الكلام، وقد يكون منافقاً ينطق بالشهادتين ويزعم الإسلام ولكنه في الحقيقة ليس مؤمناً لأنه يفتقد التصديق القلبي.

والمذهب الأشعري يميز بين الإيمان كحقيقة قلبية، وبين العمل الصالح الذي هو الفعل الجسدي، فالأعمال الصالحة مثل الصلاة والصوم والزكاة، ليست جزءاً من حقيقة الإيمان في الفكر الأشعري، لكنها من ثمراته ولوازمه، وبعبارة أخرى، الإيمان هو الذي يدفع المؤمن إلى فعل الخيرات وترك المنكرات.

ويرى الأشاعرة مثل بقية أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، هذا النقصان والزيادة لا تعنيان أن حقيقة الإيمان نفسها تتغير، بل إن أثرها وكما لها هو الذي يزداد أو ينقص، فالمؤمن المطيع إيمانه أكمل وأقوى من إيمان المؤمن العاصي، لكنهما يشتركان في أصل الإيمان.

أما المصادر التي تستند إليها الأشاعرة وتبني عليها العقيدة الأشعرية في تعريفها للإيمان فأهمها:

أولاً: القرآن الكريم.

فالقرآن هو الذي يؤكد على أهمية التصديق القلبي في آيات كثيرة منها قوله تعالى: (فَالْتِ الْاَعْرَابُ ءَامَنَّا فُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْاِيْمَنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفِكُمْ عَنْ اَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)².

ثانياً: السنة النبوية.

وذلك لما تشتمل عليه من الأحاديث التي تفرق بين الإسلام كأعمال ظاهرة، والإيمان كحقيقة باطنة، مثل حديث جبريل المشهور الذي سبقت الإشارة إليه، والذي يفرق فيه النبي صلى الله عليه وسلم بين الإسلام والإيمان والإحسان.

ثالثاً: كتب أئمة الأشاعرة.

وذلك مثل كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" لأبي الحسن الأشعري (324هـ) رحمه الله، وكتاب: "مقالات الإسلاميين" له، وكذلك "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع"، والإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به" للإمام الباقلاني (403هـ) الذي يعد من أكبر المنظرين لهذه العقيدة بعد مؤسسها أبي الحسن، وغيرها من المصادر الكثيرة التي ألفها العلماء من أمثال الغزالي (505هـ) وغيره.

ومن أقوالهم في الإيمان والسعادة، قول الإمام الأشعري رحمه الله: (وجملة قولنا: إنا نقر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، وبما جاءوا به من عند الله، وما رواد الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيمان)³.

¹ الحديث: رواه مسلم في صحيحه من حديث سيدنا صهيب رضي الله عنه.

² سورة الحجرات، الآية: 14.

³ الإبانة في أصول الديانة للإمام الأشعري، ص 202

ويقول الباقلاني رحمه الله: (واعلم أننا لا ننكر أن نطلق القول بأن الإيمان عقد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان على ما جاء في الأثر، لأنه إما أراد صلى الله عليه وسلم بذلك أن يخبر عن حقيقة الإيمان الذي ينفع في الدنيا والآخرة)¹.

ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: (والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق قال الله تعالى وما أنت بمصدق للإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد وللتصديق محل خاص وهو القلب واللسان ترجمان، وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح)².

ويقول في موضع آخر وهو يبين أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وأنها تنال بالعلم عن الله، يقول: (وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال)³.

وباختصار، يمكننا القول إن الإيمان عند الأشاعرة هو تصديق قلبي خالص، وهو الأساس الذي تبنى عليه جميع الأعمال الصالحة.

المحور الثاني: مفهوم السعادة الداخلية والمقصود منها.

السعادة الداخلية هي حالة روحية داخلية يعمرها الإيمان الحقيقي بالله، فتعكس على القلب راحة وطمأنينة وسكينة، يقول الله تعالى في التي هي محور هذه الخطة المباركة: (مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِثِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)⁴.

فالسعادة الداخلية الإيمان لا تتوقف على الأهواء أو الظروف الخارجية بل هي شعور دائم ينبع من رضا الإنسان بقضاء الله وقدره وصبره على المحن، وشكره لأنعم الله مما يجعل حياته مستقرة وهادئة، وهذا المعنى جلي في كثير من نصوص الشرع في كتاب الله وفي سنة رسول الله، ومن ذلك ما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم السالف الذكر: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير... إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)⁵، مما يؤكد أن الإيمان هو مصدر السعادة مهما اختلفت ظروف الحياة.

ولنا في تاريخ الإسلام النموذج الحي لتحقيق هذا المعنى.

فإن المتأمل في حياة السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم يجد أنهم جسّدوا مفهوم السعادة القلبية الداخلية في حياتهم من خلال مواقف واقعية، عكست ارتباطهم بالله، وزهدهم في الدنيا، ورضاهم بالقضاء والقدر.

- فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وجد سعادته في خدمة الدين وبذل ماله كله لله، حتى قال له النبي ﷺ في غزوة تبوك: (ما تركت لأهلك؟) قال: (تركت لهم الله ورسوله)، فكانت راحته القلبية في التضحية بما يملك، وليس في إمساك المال والتمتع به.
- وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عاش حياة زهد وتقشف رغم أنه خليفة، فكان يلبس ثوباً مرقوعاً ويبيت بلا حرس، ويقول: (لو نمت بالنهار ضيعت الرعية، ولو نمت بالليل ضيعت نفسي، فكيف بالنوم معهما؟)، فكان يجد لذة قلبه في القيام بما عليه من مسؤولية لله.
- وهذا بلال بن رباح رضي الله عنه، رغم العذاب الذي لقيه في مكة، كان يردد "أحدٌ أحد"، مستشعراً السعادة والطمأنينة في التوحيد، لا في التحرر الجسدي.
- وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كان يقول: "من كان يريد الدنيا فإن الدنيا قد ذهبت، ومن كان يريد الآخرة فإن الآخرة باقية، فاختاروا الباقية على الفانية". فكانت راحته في النظر إلى ما عند الله.
- وهذا الحسن البصري رحمه الله، سيد التابعين، كان يقول: "إن أهل الليل في ليلهم ألدّ من أهل اللّهُ في لهُوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا". يقصد لذة قيام الليل والأنس بالله.

¹ التقريب والإرشاد للباقلاني، ج 1، ص 181.

² إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ج 1، ص 116.

³ إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ج 1، ص 12.

⁴ سورة النحل، الآية: 97.

⁵ رواه مسلم.

- وهذا العارف الرباني، إبراهيم بن أدهم رحمه الله، ترك الملك والجاه، وعاش زاهداً عابداً، وكان يقول: "لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذة لقاتلوننا عليها بالسيف"، يقصد لذة الإيمان والقرب من الله.

المحور الثالث: أسباب تحصيل السعادة الداخلية وسبل تحقيقها

إن المتأمل فيما تحويه وتحمله النصوص الشرعية من مفاهيم ومدلولات، يخلص إلى أن تحقيق السعادة الداخلية الإيمانية يحتاج إلى روافد مهمة، خلاصتها أنه يجب على الإنسان الإيمان بالله وحده، وبكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بالتصديق الجازم والاعتراف الكامل، والمداومة على العمل الصالح الذي يعزز هذا الإيمان ليحمله واقعا في حياته.

كما يجب عليه الصبر أيضا على الابتلاءات، والرضا بقضاء الله وقدره ثم المداومة على التقوى والابتعاد عن المعاصي، كي يتم تهذيب النفس والروح، وتحقق التزكية القلبية، وهو ما تركز عليه عقيدتنا الأشعرية، في تعزيز مصداقية الإيمان.

ولنور هنا أسبابا مهمة جعلها الإسلام سبيلا لتحقيق السعادة القلبية الداخلية:

أولا: الإيمان بالله وتوحيده: قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)¹ فالتوحيد الخالص، والعقيدة الصافية، يملأ القلب طمأنينة.

ثانيا: الذكر ودوام الصلة بالله: قال تعالى: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)²، وذلك لأن كثرة التسييح والدعاء تزيل الهموم وتجلب راحة البال.

ثالثا: الرضا بالقضاء والقدر، فالمؤمن إذا رضي بما قدره الله، سلم من القلق والحزن، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس)³.

رابعا: الإحسان إلى الناس وخدمتهم، فإن فعل الخير وبذل الصدقة يورثان انشراح الصدر، يقول صلى الله عليه وسلم: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس)⁴.

خامسا: أداء الصلاة والمحافظة عليها، والخشوع فيها، فهي راحة للمؤمن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وجعلت قرّة عيني في الصلاة)⁵.

سادسا: الاستغفار والتوبة، إذ التوبة هي التي تمحو الذنوب التي تثقل القلوب، وإذا ميت الذنوب ارتاح قلب العبد واطمأن، قال تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)⁶.

سابعا: التفكير في نعم الله وشكره عليها، فالشكر هو الذي يولّد الرضا والسعادة، ويرفع الإنسان إلى مقام الزيادة، قال تعالى: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)⁷.

إن هذه الأسباب السبعة، كفيلة إذا جمعها المسلم في حياته، أن تطمئن روحه، ويعيش قلبه مطمئنا سعيدا مهما كانت الظروف.

¹ سورة الأنعام الآية 82.

² سورة الرعد الآية: 28.

³ رواه الترمذي.

⁴ رواه الطبراني.

⁵ رواه النسائي.

⁶ سورة نوح الآية 10.

⁷ سورة إبراهيم الآية 7.

خاتمة:

يتضح من خلال كل ما ذكرناه، أن الإيمان والعقيدة يمثلان الأساس الذي يقوم عليه تحقيق السعادة الداخلية الحقيقية، فالعقيدة الأشعرية تؤكد أصول الإيمان الذي هو التصديق بالقلوب مع أداء الأعمال الصالحة وهذا ما يحقق للطرفين تكاملهما. كما يمكننا القول بأن السعادة الإيمانية تسمو فوق كل متغيرات الحياة، وهي ترتبط بالرضا والقناعة والاعتماد على الله عز وجل، مما يجعل الإنسان يعيش حياة مستقرة هادئة مطمئنة.